السلوانة الثالثة

وهو ثمرة التأسى ، قال الله ربنا تقدس اسمه مخاطبا صفيه المكين لديه ، ونبيه العزيز عليه ﴿واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِيْ ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُوْنَ﴾ [النحل :١٢٧] ، وهذا لما تألب المبطلون عليه ، وقصدوا بالمكر والمكروه إليه ، كما أخبره الله سبحانه بقوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال :٣٠] .

وكان رؤساء قريش اجتمعوا فى دار الندوة[١] ليتشاوروا فى أمر النبى ﷺ، وأتاهم إبليس فى صفة شيخ أعرابى فأرادوا إخراجه ، فقال لهم : إنى من أهل نجد[٢] ولا عين عليكم منِّى ، وبلغنى ما اجتمعتم له ، ولعلكم لا تعدمون من محضرى خيرا ، فأخذوا فى تشاورهم .

فقال عتبة : أرى أن تخرجوه من بين أظهركم ، فإن ظفر كان ظفره حظا ، وإن قتل كنتم قد كفيتم أمر دمه .

فقال إبليس: ما هذا رأى ، أما سمعتم حلاوة منطقه وأخذه بالقلوب؟ ، فلا تأمنوا أن يقع فى حى من أحياء العرب فيفسد أهواءهم ويسير بهم إليكم حتى يفرق جماعتكم.

فقال آخر منهم : أرى أن يوثق ويحبس حتى يأتيه أجله وهو فى حبسه .

فقال إبليس : ليس هذا برأى ، أما علمتم أن له أهل بيت وأتباعا لا يرضون منكم بهذا فيقع الحرب بينكم ، ويهن أمركم ، ثم قد تكون الدائرة عليكم ؟

فقال أبو جهل[٣] : نرى أن نأخذ من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً جلداً ،

---

(١) دار الندوة : بمكة أحدثها قصى بن كلاب بن مرة لما تملك مكة ، وهى دار كانوا يجتمعون فيها للمشاورة ، وجعلها بعد وفاته لابنه عبد الدار بن قصى . ولفظه مأخوذ من لفظ الندى والنادى والمنتدة ، وهو مجلس القوم الذين يندون حوله أى يذهبون قريباً منه ثم يرجعون . البداية والنهاية (١/١٧٩) معجم البلدان (٤٥٧٩) .

(٢) نجد : هو اسم للأرض العريضة التى أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق و الشام ، وحد نجد أسافل الحجاز كما تدور الجبال معها إلى جبال المدينة . معجم البلدان (١١٩٠) .

(٣) أبو جهل ، هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، كان زعيم بنى مخزوم من قريش ، وكان من أكبر

ويعطى كل واحد منهم سيفا ويأتونه فى مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر أهله أن يطلبوا بدمه جميع القبائل إذا افترق دمه فيها .

فقال إبليس : لقد أصاب الرأى ، فتفرقوا على رأى أبى جهل فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله عليه السلام يعرفه مكرهم ويأمره بالهجرة إلى طيبة[1] .

وجاء الذين تخيروهم من القبائل للفتك برسول الله ﷺ إلى منزله من أول الليل ، فأمر النبى ﷺ علياً[2] رضي الله عنه أن يلبس برده الأخضر وينام على فراشه، وأعلمه أن لا يصل إليه من قريش مكروه ، فالتحف على بردة النبى ﷺ ونام على فراشه ، وخرج النبى رضي الله عنه من بيته والقوم على بابه ، فقرأ أوائل سورة يس والقرآن الحكيم ، وأخذ كفا من تراب وجعل يذريه على رؤس القوم وهم لا يرونه .

وانصرف النبى ﷺ متوجها نحو الغار ، وجعل المشركون ينظرون إلى علىٍّ فى مضجع رسول الله ﷺ وعليه برده الأخضر فيقولون هذا محمد نائماً ولا يطيقون الدخول حتى أصبحوا ، وقام علىٌّ رضي الله عنه ، فنظروا إليه فأتوه وقالوا له : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى أمرتموه بالخروج فخرج ، فحبسوه فى المسجد ساعة ثم تركوه رضى الله عنه[3] .

خبر نبوى فى الصبر

مما رويناه ، أن النبى ﷺ قال : «**العِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤمِنِ ، والحِلْمُ وَزِيرُهُ ، وَالعَقْلُ دَلِيلُهُ ، وَالْعَمَلُ قَائِدُهُ ، وَالرِّفْقُ وَالِدَهُ ، وَالْبِرُّ أَخُوهُ ، وَالصَّبْرُ أَمِيرُ**

أعداء النبى ﷺ ورسالته ، وقتل فى معركة بدر سنة (٢هـ) البداية والنهاية (٣/٣٠) .

(١) طيبة : اسم لمدينة رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٨٠٢٨) .

(٢) علىبن أبى طالب : أبو الحسن الهاشمى ، أمير المؤمنين ، ابن عم رسول الله ﷺ . وعن ابن عباس قال : لعلىّ أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله ﷺ ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه حين فرّ عنه غيره ، وهو الذى غسله وأدخله قبره . وكان زوج بنت رسول الله ﷺ فاطمة رضى الله عنها . ومناقبه وفضائله رضي الله عنه تطول . الإصابة (٥٧٠٤) .

(٣) وردت القصة كاملة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٩٢) .

جُنُوْدِهِ»[1] . فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه الخصال ، وليس المراد تفضيل الصبر على العقل والعلم وما ذكر من الخصال معهما ، ولكن المراد : أن بالصبر يكون الثبات على هذه الخصال لمن اتصف بها ؛ لأن معنى الصبر الثبات والحبس والإمساك ، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يتصف بالصبر عليه والملازمة له كان عند مزايلته كمن لم يتصف به ، فالصبر لهذه الخصال الشريفة ضابط ضبط الأمير جنوده عن مزايلة مراكزها والإخلال بما نصب لها من دفاع وانتفاع .

منثور ومنظوم من الحكم فى الصبر

روى أن عليا رضي الله عنه قال : الصَّبْرُ مَطِيَّةُ لاَ تَكْبُو[2] .

وَقِيْلَ : إِنَّ مِمَّا كُتِبَ فِيْ الصَّحِيْفَةِ الصَّفْرَاءِ الْمُعَلَّقَةِ فِيْ أَعْظَمِ هَيَاكِلِ الفُرْسِ : كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فكذلك الظفر يعشق الصبر ، فاصبر تظفر .

اعلم رحمك الله : أن ظل الصبر ظليل ، ومضله ذليل ، وأن الصبر درج يفضى بمن عرج إلى الفرج ، وأن أقل فوائد الصبر على البلية أن الصبر عليها ينغص لذة عدوه المتشفى الشامت به .

والصبر صبران: صبر العامة ، وهو عمل أرواح ، وقد أحكم هذا المعنى حبيب ابن أوس[3] فقال :

ولباسُ سَرْدِهِ الصَّبْرِ مُدَرَّعٌ به	فى الحادِثِ الجَلَل أدراعَ اللامى
والصبرُ بالأرواح يُعْلَمُ فَضْلُه	صَبْرُ الملوكِ ولَيْسَ بالأجْسَام

قوله : ادراع اللامى : أى الدرع ، والدرع : لامةٌ ، وجمعها لامٌ .

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٦٦٣) (٤٣٥٥٧) وعزاه للبيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن مرسلاً .

(٢) أى جواد لا يتعثر ولا يتكسح .

(٣) حبيب بن أوس : هو ابن الحارث بن قيس الطائى شاعر العصر أبو تمام ، من حوران ، من قرية جاسم ، أسلم وكان نصرانياً مدح الخلفاء والكبراء وشعره فى الذروة ، وكان أسمر طوالاً ، فصيحاً ، عذب العبارة مع تمتمة قليلة . ولد فى أيام الرشيد ، وقد كان البحترى يرفع من أبى تمام . ويقدمه على نفسه ، وديوانه كبير سائر . مات سنة (٢٣٢هـ) وله كتاب (مخول الشعراء) . وقيل : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب . سير أعلام النبلاء (١٨٤٧) والبداية والنهاية (١٥٣/٦) .

وقال حبيب أيضًا فأحسن :

وإذا رَأيْت أَسَى امْرِىء أو صَبْرَه ... يومًا فَقَدْ أَبْصَرْتَ صورةَ رَأْيِـهِ

وقال نهشل بن جزء :

ويَوْم كَـأنَّ المُصْطَلِين بِحَـرِّهِ ... وإِنْ لَمْ تَكُنْ نَارٌ قِيامٌ عَلَى الجَمْر

صَبَرْنَا لَهَا حَتَّى تَفُوح وإِنَّمَا ... تُفَرِّجُ أَيَّامُ الكَرِيهَةِ بالصَّبْر

قوله تفوح : أى تخبو .

وقلت فى ذلك :

على قَدْرِ فَضْلِ المرء تَأْتِى خطُوبُه ... ويُعْرَفُ عِنْدَ الصَّبْرِ فِيمَا يُصِيبُهُ

ومَنْ قَلَّ مما يتقيهِ اصطبارُهُ ... فقد قَلَّ مِمَّا يَرْتَجِيهِ نَصِيبُهُ

وقال آخر :

الصبرُ أَوْلَى بوقَار الفَتَى ... مِنْ قَلَقٍ يَهْتِكُ سِتْرَ الوَقَارْ

مَنْ لَزِمَ الصَّبْر عَلَى حَالِهِ ... كَانَ عَلَى أَيَّامِهِ بالخِيَارْ

وقال عمرو ذو الكلب :

ومَقْعَدِ كُرْبَةٍ قَدْ كُنْتُ مِنْهُ ... مَكَان الإصْبَعَين مِنَ القَبَالِ[1]

صَبَرْتُ لَها وكُنْتُ أَخَا حِفَاظٍ ... إِذَا خَامَ اللِّئَامُ عن النِّزَالِ[2]

فَهَذَا والمَنِيَّةَ مِنْ وَرَائى ... سَتَطْرُقُنِى بهَا إحْدَى اللَّيَالِى

قال محمد عفا الله عنه : هذا أنموذج من القول فى الصبر على الجملة ، وهو يتنوع أنواعا ، والنوع اللائق بكتابنا هذا منها : هو صبر الملوك ، وصبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى : القوة الأولى : قوة الحلم ، وثمرتها العفو ، القوة الثانية : الكلاءة[3] والحفظ ، وثمرتها عمادة المملكة ، والقوة الثالثة : قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات ، وأما ثمرتها فى حماة المملكة من المقاتل ،

---

(١) القبال : من النعال زمامها .

(٢) خام : جَبُنَ ونَكَصَ .

(٣) الكلاءة : الاحتراس والحفظ .

الإقدام فى المعارك ، ولا يراد من الملك الإقدام فى المكافحة ، فإن ذلك من الملوك تهور وطيش وتغرير، وإنما شجاعة الملك ثباته حتى يكون قطبا للمحاربين ، ومعقلا للمنهزمين ، وهذا مادام بحضرته من يثق ندبه عنه ودفاعه دونه وحمايته له .

فلقد ذكرت الفرس : أن فيلا اغتلم[١] ، أى هام شبقا[٢] ، فدخل قصر كسرى أنوشروان[٣] ، والفيل إذا اغتلم أنكر سواسه ولم يثبت له شىء إلا أتى عليه ، قالوا : وإن ذلك الفيل قصد مجلسا كان فيه كسرى ومعه جماعة من كفاة أصحابه؛ فلما رأى الذين مع كسرى أن الفيل قد قصدهم فروا من المجلس وثبت كسرى على سريره وثبت معه رجل من أساورته كان مكينا عنده يثق بثباته ، فقام ذلك الأسوار بين يدى سرير كسرى وبيده طبرزين وقصده الفيل فثبت له حتى غشيه فضربه بالطبرزين[٤] على فنطسته[٥] ، فكر الفيل راجعا من حيث جاء ، وقد نالت منه الضربة منالا شديدا ، وكسرى فى هذا كله لم يتخلخل عن مجلسه ولا تغيرت هيئته ولا فارقته أبهته .

فهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملك ، فإذا لم يكن بحضرة الملك من يثق بدفعه عنه ، حَسُنَ حينئذ منه أن يذب عن نفسه ، إما بالإقدام على العدو إن غلب على ظنه الامتناع منهم بالإقدام عليهم ، أو بانهزامه إن أتاه مالا قبل له به ، وأشفق من عطب رعيته بهلكه .

كما حكى أن موسى الهادى[٦] كان يوماً فى بستان ومعه أهل بيته وبطانته وهو راكب على حمار وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلا من الخوارج جيء به أسيراً ، وكان الهادى حريصاً على الظفر به فأمر بإدخاله

---

(١) ثار فى شهوة .

(٢) الشبق : شدة الرغبة والشهوة .

(٣) كسرى أنوشروان : ملك من أسرة الساسانيين ، حكم فارس وله العديد من الإصلاحات ، اشتهر بعد له وبثرائه وفخامة قصوره حتى ضربت به العرب المثل فى الثراء ، له العديد من الانتصارات على الروم واستولى على اليمن . البداية والنهاية (١٦٧/٢) .

(٤) الطبرزين : آلة شبيهة بالفأس .

(٥) أى على أنفه (خرطومه) .

(٦) موسى الهادى : العباسى بن المهدى وهو الخليفة العباسى الرابع ، وهو أخو الخليفة الرشيد . توفى عام (١٧٠هـ) . البداية والنهاية (١٥٣/١٠) .

بين رجلين قد أمسكا بيديه ، فلما رأى الخارجى الهادى جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه واخترط سيف[1] أحدهما ووثب نحو الهادى ، ولما رأى ذلك من كان حول الهادى من أهله وخاصته ؛ فروا جميعا وبقى الهادى وحده ، فثبت على حماره بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف قال الهادى: اضرب عنقه ياغلام ، فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ووثب الهادى عن سرجه فإذا هو على الخارجى ، وسقط الخارجى تحته فقبض الهادى على يده ، وانتزع منه السيف فذبحه به ، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره ، وتراجع إليه خاصته وأهله يتسللون وقد ملئوا منه رعباً وحياءً ، فما خاطبهم فى ذلك بحرف ، ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيف ولا يركب إلا الخيل .

وقد جلا عليك هذا الخبر ما أيد الله به موسى الهادى من ثبات الجأش[2] ، وإصابة الرأى ، وشدة الكيد ، وشجاعة القلب ، وقوة البدن رحمة الله عليه .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : وصف لكسرى أنوشروان أرض من التخوم[3] الهندية تتاخم أقليم بابل فذكرت له بحسن المنظر وطيب الهواء والماء ، وكثرة الإتاوة ، وزكاء الغلات، وكثرة العمائر ، وحصانة المعاقل . ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم[4] وبلادة[5] الفهوم وشجاعة القلوب ، وقوة الأبدان ، والصبر على العمارة ولزوم الطاعة ولين المقادة ، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض والتكثر بأهلها.

وكان يقال : الشره أعرق الحصائل[6] فى اللؤم ، فالحرص أبوه الذى يولده، والبغى ابنه الذى يلده ، والطمع شقيقه والذل رفيقه .

وكان يقال : من شَرِهَ وقع فيما كره .

---

(١) أى استل السيف .
(٢) أى ثبات النفس .
(٣) التخوم ، مفردها تخم : وهى الحدود .
(٤) الجسوم ، مفردها الجسم : وهى الأبدان .
(٥) أى عجز الرأى وضعف الهمة .
(٦) الحصائل ، مفردها حصيلة : وهى ما حُصّل وجمع .

وكان يقال : الشره شدة ، ينتجها طبع ويهيجها طمع .

قيل : فلما طمحت نفس أنوشروان إلى تملك تلك الأرض ، سأل عن ملكها، فأُخبر بأنه عظيم من أراكنة الهند[1] ، وأنه شاب منقاد لشهوته ، مقبل على لذاته، إلا أنه سالك صراطاً من العدل لايجور ، ومالك منهلا من البذل لا يغور ، إلى رأفة برعيته قد أشربت قلوبهم وده ، وركنت آمالهم إلى ما عنده .

فندب له كسرى من ثقات أصحابه ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وتفقه فى سياساتهم وكان ذا دهاء وفكر ، وحزامة ومكر ، فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض والبحث عن ثغورها ومعاقلها ، وتطلب عورتها وتفقد أخلاق ملكها وأهلها ، وكتب معه كتابا إلى ذلك الأركن يدعوه فيه إلى الدخول فى طاعته، ويحذره التعرض لصولته بمخالفته .

فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الأركن ، فأحسن منزله وبالغ فى بره وتكرمته ، وعمى عليه الأخبار وبالغ فى قبضه عن التصرف وفى قبض الناس عن لقائه واحتجب عنه ، ولم يستدع الكتاب منه ، وندب لاختباره وعلم ما قصد له رجلا من دهاة أصحابه ، فأمره بالتجسس على أنبائه والتلطف فى مداخلته ومخاتلته[2] . فانطلق ذلك الجاسوس فاكترى حانوتا[3] بإزاء دار الرسول ، وملأه فخارا وجلس فيه ليبيع ذلك الفخار .

وكان للرسول غلام يخف فى حوائجه ويتصرف فى مآربه ، فجعل الجاسوس إذا رأى ذلك الغلام هش له وأكرمه وسأله عما له من حاجة ، إلى أن أنس به الغلام فكان يجلس إليه ويستعين به على أمره ، فلبث بذلك مدة لا يسأله عن شىء من أمر سيده ، فلما تأكد أنس الغلام به قال له يوما : من تكون ؟ ومن لك فى هذه الدار التى تدخلها ؟ .

فقال له الغلام : صحبتنى منذ كذا وكذا ولا تعرفنى ؟ ، فقال الجاسوس : وما علمى ؟ .

---

(١) أى ملوك الهند .

(٢) أى مخادعته .

(٣) أى استأجر محلاً بجانبه .

قال له : أنا غلام رسول كسرى وسيدى فى هذه الدار ، فقال الجاسوس : ومن كسرى ومن رسوله ؟ .

فقال الغلام : كسرى ملك بابل أرسل سيدى إلى ملك أرضكم ، فقال الجاسوس : قد عرفت حين ذكرت بابل لأنى كنت فى صباى أجيرا لرجل من أهل بابل ، ثم أمسك عن الغلام أياما لا يسأله شيئاً .

وكان يقال : التنقير[1] تنفير .

وقيل : التنقيب يريب الأريب[2] .

وقيل : من تسرع إلى الأمانة فلا لوم على من اتهمه بالإضاعة ، ومن تسرع إلى المشاركة فى السر فلا لوم على من اتهمه بالإذاعة ، ومن تنصح قبل أن يستنصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع ، ومن عنى بكشف ما ستر عنه فلا لوم على من اتهمه بخبث الطباع .

قيل : إن الجاسوس قال للغلام يوما : إذا خرج مولاك فأرنى إياه .

فقال الغلام : إن مولاى لا ينصرف ، قال الجاسوس : أمريض هو ؟ .

قال الغلام : لا ، ولكن ملككم حظر عليه الخروج وعلى الناس الدخول إليه، فبكى الجاسوس ، فقال له الغلام : ما الذى أبكاك ؟ فقال الجاسوس : أبكتنى الرحمة لمولاك مما هو فيه ، لأنى ابتليت بمثله ؛ وذلك أنى حبست مرة فى دين كان علىّ ومنعت امرأتى من الدخول على ، فولا أن الله تعالى من علىّ برجل كان محبوسا معى فكان يسلينى بحديثه وأنسه[3] لهلكت غما ؛ فهل تحدث مولاك وتسليه ؟

فقال الغلام : إنى لا أعرف هذا ولا أدرى خبرا أطربه به ، فقال الجاسوس له: أفلا أدلك على ذلك ؟ فقال الغلام : بلى ، فأحسن إلى بذلك .

فقال له الجاسوس : إذا خرجت من عند مولاك فطف فى المدينة وتأمل ما

---

(١) الجدل والنزاع .

(٢) الماهر الذكى .

(٣) أى استأنس بحديثه وكلامه .

تراه فيها ، فإذا رأيت جماعة يتحدثون فاجلس إليهم واستمع ما يفيضون فيه ، فإذا رجعت إلى سيدك وخلوت معه فقل : رأيت اليوم كذا وكذا وسمعت من يقول كذا وكذا ؛ فإن فى هذه تسلية له ، وأنسا من وحشته ويوشك إذا فعلت ذلك أن تحظى بما عنده . ففعل ما أمره به الجاسوس فقال له سيده : من دلك على فعل هذا ؟ فقال الغلام: أنا فطنت له ففعلته ، فقال له سيده : كلا ليس هذا فى قوى عقلك ، فأخبرنى بمن دلك عليه .

فقال الغلام : دلنى عليه جار لك يبيع الفخار ، ما رأيت أجهل ولا أبله منه ، فقال له سيده : من الذى دلك على بلهه[1] وجهله ؟ فقال الغلام : إنه صحبنى أكثر من شهر ، وهو لا يعرف من أنا ولا من سيدى ، وذكرت له مُلك كسرى فإذا هو لا يعرفه ، فلما سمع الرسول ذلك استراب منه وحدس أنه متجسس عليه، لما رأى أنه قد أفرط فى تجاهله .

وكان يقال : من أفرط فهو كمن فرط ، ومن احتفل فى غلوه استفل[2] عن علوه .

وكان يقال : ما دل على الأحوال كالأقوال ، ولا هتك قناع العقول كسماع المقول .

وكان يقال : من لم تعرفك غائبا أذناه لم تعرفك شاهدا عيناه .

قيل : فلما سمع الرسول مقالة عبده أمره أن يأتيه به ، ففعل ، ولما رآه الرسول حقق ما كان ظنه به من كونه جاسوساً عليه ، فأكرمه وقربه وتظاهر له بغباوة وجهل لا مزيد عليها ، وسأله أن يواصل زيارته ، فلبث الجاسوس متفقداً حال الرسول فى ليله ونهاره مدة متراخية ، ولما ظن ذلك الجاسوس أنه قد حصل ما أراد علمه من أمر رسول كسرى ، ذهب إلى الملك فأخبره أن ذلك الرسول فدم عيى[3] ، لا ذكاء له ولا غناء عنده أكثر من أنه ذو نجدة وفروسية ونفس أبية ، فوثق الملك بقوله وتخيل الرسول بالصورة التى مثله بها الجاسوس عنده

---

(١) ضعف عقله وعجز رأيه .

(٢) أى سقط وهبط .

(٣) أى ذو حماقة وغباء .

وكان يقال : لايكن سمعك لأول مخبر ولا ثقتك لأول مجلس .

وكان يقال : إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالقضاء له بأحدهما قبل الامتحان جور .

وكان يقال : إنما يقضى بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه ، وشرح هذا: أن المخبر الصادق - إذا لم يكن معصوما فهو - عرضة للتلبيس وفرصة للتدليس ، وكون المخبر ثقة صدوقا إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله ولا يفيد عصمة إدراكه ، فقد ينظر الصادق المغفل إلى الشمس فيخبر بأنها غير سائرة ، وينظر إلى القمر ودونه مقطعات السحاب فيخبر بأنه أدرك سرعة سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البر فيزعم أن البر يجرى ، وينظر إلى أخبار الشعوذى[1] فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هى عليه ، ويسمع كلام الببغاء المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان ، فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه.

قيل : فلما وثق الأركن بمقالة جاسوسه أحضر رسول كسرى ، فأكرمه وخاطبه بكل قول حسن ، وأخذ منه الكتاب ، وخلع عليه ، وأجزل صلته ، ورده إلى منزله مكرماً مبروراً ، وأباح له التصرف ، وأذن لمن أراد قصده فى زيارته، وتابع إلحافه وتكرمته ، ولبث بذلك عاماً ، ثم استحضره وسلم إليه جواب كتابه وأعطاه هدية إلى كسرى يقال : إن منها سيفاً طوله خمسة أشبار ، ولونه كلون النحاس الأحمر ، يعمل فى الحديد كما يعمل غيره فى الرصاص ، وصفحة من الياقوت الأزرق تسع مَنًّا[2] من الطعام وكأساً من الزمرد البحرى يسع رطلا من الشراب ، وألف درة فريدة ، وقنديلاً من المها[3] فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام إذا علق فى بيت فيه مصباح ليلا ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحمرة فلا يشك فى حمرتها ، وطيباً كثيراً ، ودروعاً ودرقاً[4] ،

---

(١) أى الدجال المشعوذ .

(٢) كيل أو ميزان وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً .

(٣) أى البللور .

(٤) الدرق ، مفردها الدرقة : وهى الترس من جلود ليس فيه خشب .

وغير ذلك ، وخص الرسول بخباء[1] وذخائر نفيسة ، وصرفه إلى مرسله .

فلما قدم الرسول على كسرى سأله عما ندبه لتعرفه ، فأخبره بطيب تلك الأرض ، وفضائل خصائصها ، وشرف مزاياها وحصانة ثغورها ، وأنه لم يجد لها عورة تؤتى منها إلا غرارة[2] سكانها ، وأن عقولهم متهيئة لقبول الخدع ، محجوبة عن النظر فى العواقب ، وأن هذا هو موجب حسن طاعتهم لمن ألفوا طاعته ، فلو ندب إليهم رجال يحسنون نصب الدعوات إلى الدول لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن ملكهم ، فإذا انصرفت طاعتهم لم تقم لملكهم بعد ذلك قائمة، لأنهم أعضاده الذين يصول بهم ، فهم فى الرخاء ثمار مجتناة وفى البلاء سيوف منتضاة[3].

فنظر كسرى فيما كتب إليه به الأركن ، فوجده قد خاطبه بالملاطفة ، واعترف بفضله وتملقه ، ورغب إليه فى الموادعة والمؤاخاة ، فاستشار أنوشروان وزراءه فى أمره وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمته ، فاختلفوا عليه، فأجمع على أن يرد هديته إليه ففعل ، ثم إنه ندب لإستفساد رعيته رجالا يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول ، وأمدهم بالأموال ، وأزاح عللهم وبين لهم مثالاً يحذون عليه ، فنفروا لما أمرهم به حتى انتهوا إلى مملكة ذلك الأركن ، فتفرقوا فيها وعمل كل واحد قوته فيما انتدب له .

فلما أتى عليهم عامان أحكموا ما أرادوا من ذلك فى دار مملكة الأركن وفى غيرها من مدنه وحصونه ورساتيقه[4] ، وكتبوا بذلك إلى كسرى ، فحرك إليهم المرزبان[5] المتولى ربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية ، وذلك أن أقليم بابل كان مصروفاً إلى أربع مرازبة ، لكل مرزبان منهم ربع منه ، ومع كل مرزبان منهم خمسون ألف مقاتل .

---

(١) ما يعمل من وبر أو صوف للسكن .

(٢) أى غفلة سكانها .

(٣) مجهزة ومستعدة

(٤) الرساتيق ، مفردها الرستاق : وهى القرى الصغيرة وما يحيط بها من الأرض .

(٥) المرزبان : كلمة فارسية وهى تعنى الرئيس عند الفرس .

فلما شرع ذلك المرزبان فى الحشد و بإعداد كتب عيون الأركن بتلك الجهة إليه يخبرونه بأن المرزبان المجاور لجـ بلاده قد أخذ فى حشد الأجناد وتأهب الاستعداد ، فعلم الأركن أنه قاصده ، ونجم النفاق ببلده ، وتحدث الناس بقصد المرزبان إليه وأكثروا الأراجيف[1] فانتبه الأركن من غفلته ، وبحث عن الأمر ، فوقف على حقيقته ، وكان أمر مملكته يدور على خمسة رجال ، أربعة منهم هم وزراؤه ، والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة[2] والذى يأخذون عنه دينهم . فجمعهم الأركن وعرفهم بما بلغه من فساد قلوب رعيته ، وحشد المرزبان لقصد بلاده ، وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم . فجلسوا يتناظرون فى ابتغاء صواب الرأى .

فقال أحد الوزراء الأربعة : الرأى أن يستصلح الملك رعيته ، فيملأ أيديها رغبات وقلوبها أملا ، حتى يستقيم معوجها ، ويأنس نافرها ، فإن عدونا إذا علم بذلك جبن عن الإقدام عليها ، وإن أقدم لقيناه بكلمة مجتمعة وأيد متناصرة .

فقال رئيس الزمازمة : إنما يصلح هذا من الرعية ، لو كان فسادها أوجبه هضم جور أو عسف سيرة ؛ فيزال عنها سبب فسادها فتصلح ، وليست رعية الملك بهذه الصفة ، وإنما أورد عليها الفساد جهلها بمواقع الصواب ، وبطرها لترادف النعم .

وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدهم التكرمة إلا فسادا : الولد ، والزوجة والخادم ، والرعية . وضربوا لذلك مثلاً : القوى الأربعة المرذولة[3] ؛ إذا هاجت لتعدى حدود المصلحة وهى : الغضب إذا تعدى حد الشجاعة ، وحد الأنفة من الرذائل، والشهوة إذا تعدت حد راحة العقل من كد اكتساب الفضائل ، والحرص إذا تعدى حد الكفاية ، والكسل إذا تعدى راحة الجسم من كد اكتساب المصالح ، فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا ، وإنما تعانى بحسم موادها .

فقال الملك : صدق الحكيم . ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة : الرأى

---

(١) الأراجيف : الأخبار المختلطة الكاذبة السيئة .

(٢) أى أولو الأمر .

(٣) الفاسدة الرديئة .

عندى أن نضرب بمن صلح من الرعية من فسد منها ، حتى تستقيم وتستوثق لنا، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله[1] ولا نحذر غشه ؛ لأنا مضطرون إلى الحرب؛ لكون عدونا لا يرضيه إلا أخذ ما بأيدينا .

فقال رئيس الزمازمة : هذا أنفع لعدونا من جيشه وأدعى إلى طاعته من دعاته مع أنه إذا علم بحربنا ، فيما بيننا وتناصبنا ؛ ذهبت هيبتنا من نفسه وبلغ فينا أمله .

وقد قالت الحكماء : أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربع أحوال هلك بها : الملك فى حال غضبه ، والسيل فى حال صدمته ، والفيل فى حال غلمته ، والعامة فى حال هيجها ومرجها .

وقالوا : إن أشبه شىء بردع العامة عند تنمرها وهيجها معاناة الجدرى[2] فى حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة .

فقال الملك : صدق الحكيم ، فقال وزير ثالث : الرأى عندى أن نطلب أولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية ، فنميزه ممن سواه ، ثم نرى رأينا بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة أو ضعة أو نباهة أو ضعف أو قوة ، فنقابله بما توجبه حاله من التدبير .

فقال رئيس الزمازمة : البحث الآن عن هذا خطر عظيم ؛ لأنه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا واعتماده بالنصائح ودلالته على عورتنا ، وإذا التحق مع عدونا قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا ، وبذل جهده فى العود إلى وطنه وأهله وماله ، وعدونا لا يقاتلنا على مثل ذلك ، وربما لم ينفصل عنا المريب بل يعادينا بموضعه ويكاشفنا ، ويتكثر علينا بشكله من الرعية فينصره ، وإن لم يكن على مثل رأيه لِعِلَّة مشاكلته له ، كما أن الكلبين لا يمنعهما تعاديهما وتهارشهما[3] من التعاون على الذئب إذا أبصراه ، ولا يلتفتان إلى تحقق الذئب فى الخلق الكلبى ، ولكنهما ينافرانه ويصطلحان فى التعاون عليه ، نظرا إلى خصيصى توحشه وأنفته وجرأته ، فكذلك العامى لا ينظر إلى الملك

---

(١) إفساده .

(٢) الجدرى : مرض يسبب بثوراً حمراً بيض الرؤوس تنتشر فى البدن وتتقيح سريعا وهو شديد العدوى .

(٣) أى تحرش بعضهما ببعض .

من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى ، بل ينظر إليه من حيث خصيصى تفرده وأنفته وعلو همته ، فينافره لذلك ويألف عامى الذى يشاكله فى الأخلاق بعلة المشاكلة[1] .

وقد قالت الحكماء : ثلاثة إن كاشفتهم بالامتحان فى ثلاث أحوال خسرتهم: مؤدبك فى حال استقلالك ، وصديقك فى حال اختلالك[2] ، وامرأتك فى حال اكتهالك ، والرعية كالزوجة ، وإدبار الملك كالاتهال[3] .

وقالوا : مثل ذلك كمثل امتحان قوى معد الناقهين[4] من الأمراض بالأطعمة الغليظة .

فقال الملك : صدق الحكيم . فقال الوزير الرابع ، وكان أوسعهم حلماً وأفضلهم رأياً : أما أنا فأحدث الملك حديثاً أخبرنى به مؤدبى وكان من آخر ما أفادنيه ، وقال لى : اخزن هذا الحديث فى حبة قلبك ، ولا تتمنى أن تعيش إلى اليوم الذى تحتاج فيه إليه ، وإنى لأحسبه هذا اليوم .

فقال له الملك : قل نسمع لحديثك .

فقال له رئيس الزمازمة : ما أولى بالإصابة .

فقال الوزراء الثلاثة : إنه لكذلك .

فقال الوزير الرابع : إنما نحن كأصبع الراحة فى افتقار بعضها إلى بعض وقوة بعضها ببعض وتزين بعضها ببعض ، ثم إنا نستمد من نور عقل الملك السعيد بنظرنا إليه واستماعنا منه كما تستمد الدرارى[5] من نور الشمس ، فكلنا إلى الملك محتاج وبه مقتد .

فقال الملك : قل أيها الوزير الصالح ، بالقبول والكرامة لك ولمن نُبت عنه، فأنتم فى مناصحتنا والغناء عنا والأداء إلينا كالحواس الخمس للقلب ، فسجدوا له

---

(١) المشابهة .

(٢) الاختلال : الكرب والضعف .

(٣) الإتهال ، مفردها تهيل : وهو الرمل المنهال المنصب . أى إن ملكه ينهال وينفرط مثل الرمال .

(٤) أى كامتحان معدة من شفى من مرض فى فترة النقاهة .

(٥) الكواكب .

أجمعون .

ثم قال الوزير الرابع : زعم مؤدبى أن رجلاً موسراً من التجار كان يأوى إلى بيت مبطن السقف ، وفيما بين ذلك السقف وبطانته فئران كثيرة ، فكُنَّ فيما شئن وادعين من الأمنة وتيسير الطعمة ، يمرحن النهار كله على حال طمأنينة ، فإذا جاء الليل نزلن من السقف ، فتفرقن فى مخازن التاجر ومساكن عياله ، فأكلن واحتملن ، فكثر أذاهن على التاجر ، وأنه دخل يوماً مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكراً فى بعض أموره ، ودخلت الفئران تمرح على بطانة السقف ، والتراب يتساقط من خلل الألواح فضجر التاجر ونهض مبادرا ، فأمر بتحويل ما فى البيت من الأثاث ثم أمر عبيده فوضعوا بطانة السقف ، وانتشر الفئران فى الدار فقتلن شر قتلة ، ولم ينج إلا جرذ[1] وفأرة كانا غائبين عن السقف ، فلما رجعا وأبصرا فساد وطنهما ومصارع الفئران فى جميع الدار راعهما ذلك ، وأقبل الجرذ على الفأر فقال لها : لقد صدق القائل : من صحب الدنيا واثقا بها كان كالنائم فى الظل الذى يكون قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلكها الأعلى ؛ فيتقلص الظل بتصوب الشمس، فيوقظه حرها ولا يجد للظل عينا ولا أثرا . فقالت الفأرة : صدقت فماذا ترى ؟

قال الجرذ : أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا المنال ، وأفر من الأنس جهدى ، فإن هيجهم شديد وحيلهم أمضى من قوة غيرهم من العوالم .

فقالت الفأرة : أنا معك ، فانطلقا حتى أتيا أرضاً بواراً جرداء ذات أخلاط من الوحوش ، تكتنف[2] وادياً معشبا فيه غدران ماء ذات ضفادع وسلاحف . فأعجبهما ذلك وسارا فى الوادى يلتمسان موضعاً يحتفران فيه جحراً ، وانتهيا إلى ربوة عالية فى وسط ذلك الوادى قد انجاب[3] عنها مسيل الماء فيه يمينا وشمالا ، فاحتفرا فى أصل تلك الربوة جحراً رضياه وأوطناه ، وأنهما علياً يوماً

---

(١) فأر ذكر .

(٢) تحيط .

(٣) انشق وقطع .

من الأيام تلك الربوة ، فرأيا فى أعلاها يربوعا[1] قد علت سنه على باب جحر له ، فرحب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما ، فأخبراه إلى أن ذكرا له أنهما أوطنا جحرا فى أصل تلك الرابية[2] ، فقال لهما اليربوع : لولا أن النصح كثيرا ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما . فقالا له : ما أحوجنا إلى نصحك .

فقال لهما : إنه كان يقال : أربع لا تقدم عليها حتى تسأل عنها الخبير بها : السوق لا تقدم عليها حتى تسأل عن النافق[3] فيها والكاسد[4] ، والمرأة لا تقدم عليها حتى تسأل عن منصبها وخلقها ، والطريق لا تسلكها حتى تسأل عن أمنها وخوفها ، والبلد لا توطنها حتى تسأل عن مرافقها وسيرة سلطانها وأخلاق أهلها، وقوة من يكيد أهلها ويعاديهم .

وكان يقال : انظر إلى المنتصح فإن أتاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فاعلم أنه شرير ، وإن أتاك بما ينفعك ويضر غيرك فاعلم أنه طامع ، وإن أتاك بما ينفعك ولا يضر غيرك فاصغ إليه وعول عليه[5] .

وكان يقال : إذا لم تعن ناصحك على نفسك ، كان ناصحك كمن يريد تقويم ظل عود قد نصب معوجاً قبل أن يقيم العود فى منصبه .

وكان يقال : إذا أردت أن تعلم ما يغلب على الإنسان من قوى الخير والشر فاستشره ، فإن دلالة رأيه عليه أصح دلالة .

وكان يقال : شر ما فى عالم الأخلاق التعاطى ؛ لأن التعاطى يزيد المتخلق به شراً ويعرضه فى مواسم الخزى ، وهذا كالضعيف يتعاطى القوة ، وكالجاهل يتعاطى العلم ، وكالفقير يتعاطى الغنى.

وكان يقال : إذا احتجت إلى المشورة فشاور ذى الحنكة والتجربة من طبقتك، ولا تشاور من ليس من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجاً عن عالم خصائصك .

---

(١) نوع من القوارض ، يشبه الفأر له ذنب طويل ، قصير اليدين ، طويل الرجلين .
(٢) ما ارتفع من الأرض وهى التلة والربوة .
(٣) الرائج ، والمرغوب فيه .
(٤) غير المرغوب فيه .
(٥) أى اعتمد عليه .

واعلما أنه قد جمعتنى وإياكما مناسبة صناعية وهى حفر الجحر ، إلا أنّى فى علمها أرسخ منكما ، فانتقلا من جحركما ، فإنه بئس الجحر ومن شر الأوطان ، وأنا ابن بجدة[1] هذه الأرض والخبير بها ، وقد قيل : قتل أرضاً خابرها ، فتحولا عن ذلك الجحر واطلبا مأوى سواه .

فخرجا من عند اليربوع يهزآن به ، ويسخران منه ، وينسبانه إلى الهَرَم[2] والخوف ورجعا إلى جحرهما فلبثا به مدة طويلة وولدا فيه أولادا ، ثم إن الجرذ خرج يوما من الأيام فأوغل فى تلك الأرض لبعض شأنه ، ثم عاد قاصدا إلى الربوة ، فإذا السيل قد جرى فى ذلك الوادى ، فأحدق بالربوة وارتفع حتى صارت الربوة فى مثل البحر العجاج[3] ، فوقف على ضفة الوادى ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك إلفه وذهاب ما أعد من طعمته ، فرأى اليربوع قاعدا على الربوة آمنا ، فناداه اليربوع : أيها الجرذ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم ومعصية الخبير النصيح ؟ فقال الجرذ : وجدتها مُرة .

فقال اليربوع للجرذ: هون عليك وخفض من حسرتك، فإن النعمة فى بقاء نفسك تربى على المصيبة بأهلك وولدك، فانس النعمة بالشكر تألفك ، فتستمتع بها.

وإنه كان يقال : أظهر البشر لثلاثة : للصديق ، والغريم ، والنعمة .

وكان يقال : الحر لا تذهله إساءة من كان أحسن إليه عن شكر إحسانه السالف عنده .

وكان يقال : إذا أحسن إليك محسن ثم تنكر لك وأصابك بمساءة ، فلا تنقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به ، فإن ذلك أوجه شفيع لك عنده .

فقال الجرذ لليربوع : ما كان أشقانى أيها الحكيم بمعصيتك والبعد عنك ، وبحق قيل : العاقل ينبغى أن يصحب العلماء الممدين بالحكمة والآداب ، ولو كنت ذا بصيرة لعلمت أنك أيها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة

---

(١) أى أعلم بها وبأحوالها ، والبجدة هى الأصل .

(٢) أى العجز وكبر السن .

(٣) المضطرب الثائر .

الكؤود[1] وهبوطها ، على ضعف بدنك وكبر سنك إلا لأمر اقتضته الحكمة وأوجبه الرأى المصيب . ثم إن الجرذ أمهل حتى ذهب السيل ، فصعد الربوة واتخذ جحراً جانب جحر اليربوع فأوطنه آمنا قرير العين ، فهذا ما أخبرنى به مؤدبى .

فقال الملك : صدقت أيها الوزير الصالح قائلا ، وسددت ناصحا ، وأصبحت مشيرا ، وتلطفت مبلغا ، ودعوت سميعا ، فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا ، نلزم أنفسنا الصبر على صعودها ، ونقصر ما فيها على مألوف ملاذها وانبساطها فى هذا العالم الخبيث إليها ، فلعنا[2] أن نجتنى السلامة التى اجتناها اليربوع من سيل هذه الفتن .

فقال الوزير : أيها الملك السعيد المفدى بالنفوس الزكية ، عشت ما بدا لك أن تعيش ، ونلت ما أملت ، فما أعجب قبولك ما نهديه إليك من نعمك ونجلوه عليك من حكمك ، وإنى لأعرف فى ناحية من ممالكك معقلاً تطل فيه على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب ، تقاتل دونك الأبصار اللامحة والأفكار الطامحة ، وهو مع ذلك ذو هواء عليل وماء سلسبيل ، وحدائق باسقة[3] ومرافق متناسقة ، وقد كان بعض سلف الملك السعيد عنى به بعض العناية ، فقطع عليه أمله الدثور[4] الحتم القاطع عقود الحياة .

فلما سمع الملك ما دله عليه وزيره ملىء سروراً وركب من فوره فى خاصته وثقاته ، حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذى دله عليه وزيره ، فوجده فى رأى عينه أفضل مما صوره الوزير فى نفسه ، ووجد به رسوما وثيقة وآثارا أثرها بعض من تقدم من آبائه ؛ فحشد إليه المهندسين والبنائين والعمال ، وأمرهم بالجد فى إكماله ، وبادر من فوره ، فنقل إليه خاص بيوت أمواله ، وخزائن سلاحه ، ونفائس ذخائره وحشد رعيته لحمل الأرز إليه فأودعه من الأرز المقشور وغير المقشور ما ظن أن فيه كفاية ، وذلك أن الأرز الذى لم

---

(١) المضنية والشاقة .

(٢) أى لَعَلَّنَا .

(٣) أى عالية الأشجار جميلة المنظر .

(٤) الخائب .

يقشر طويل البقاء ، وأعد لنزوله عدته وهو مع ذلك يسد الثغور ويجند الأجناد ويشيد الحصون .

فلما مضت له ثلاثة أشهر من يوم كتب إليه جواسيسه بحركة المرزبان وحشده ، اقتحم المرزبان ثغوره فى الجيوش المتوافرة والعدة الكاملة ، وظهر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسدوه من الرعية ، فغلبوا على ما يليهم من البلاد ، واستعمل المرزبان عليها عمالا من ثقاة أصحابه ، ورتب فيها حماة من جنده ومن أهلها ، ثم دنا يطوى الأرض ، فوافته جيوش الأركن فدافعته بعض الدفاع ، ثم انهزم من كان فى نفسه دغل ، فانهزم المناصحون بانهزامهم ، واستولى المرزبان على عسكرهم ، واستبقى النفوس ، وأخذ الأموال ، ثم تجاوزهم يطوى المملكة طيا ، وكان الأركن عندما اقتحم المرزبان ثغوره ، قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل ، وجمع وجوه قاطنى حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسيئين منهم ، فنصلوا بما قرفوا[1] به عنده ، وحلفوا له على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم .

فقال لهم الملك : إنى لم أجمعكم لهذا ولست بناكل[2] عن عدوى ولا بمستبعد الظفر به والنصر عليه ، ولا بمعين تهمة أحد منكم ، غير أنه أخبرنى بعض وزرائى عن ملك من سلفى أنه شرع فى بناء معقل وعنى به بعض العناية ، فحال بينه وبين ما أراد من إتمام ذلك الانحلال المحتوم على عالم التركيب ، فحملنى على تكملة ما شرع جدى قول الحكيم : إن أبر الملوك من تم به سلفه ، وأعقهم من انقطع سعيهم عنده ، ثم إنى أحببت أن أجعل ذلك الحصن من عددى وذخائرى ، لقول الحكماء : إن أحزم الرعاة من أعد لجميع قضايا العقل أحكاما .

وقولهم : يجب على الملك أن لا يخلو من خمسة معاقل : أحدها وزير صالح يتحصن برأيه ، والثانى : سيف قاطع يتحصن بحده إذا غشى ، والثالث : فرس سبق يتحصن بظهره إذا لم يمكنه الثبات ، والرابع : امرأة حسناء يحصن

---

(١) أى نفوا ما ارتكبوه من خروج عن طاعته .

(٢) أى بجبان وناكص .

بها فرجه وبصره ، والخامس : قلعة منيعة يتحصن بحلولها إذا أحيط به ، فاتخذت هذا المعقل لتكمل به حصونى ونقلت إليه ذخائرى وما يكرم على ، فمن أراد منكم أن يقتدى بى فى فعلى أخذا بالحزم فليفعل .

ولما فرغ من مخاطبتهم أذن لهم فخرجوا من عنده ، فاقتدى به منهم من كان ذا عقل وخبرة ، فجهزوا إلى ذلك المعقل أهليهم وأموالهم وأقواتهم .

وأما المرزبان فإنه صار إلى تلك المملكة يطويها طى السِّجِل ؛ لا يقاومه جيش إلا هزمه ، حتى أشرف على حضرة الأركن فنزل على فرسخ منها وتهيب الإقدام عليها وقد كان الأركن أمر الناس بالخروج إليه ، فخرجت أُمّة عظيمة وخرج الأركن فى أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقاة أصحابه ، فقام بهم فى معزل عن جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعبأ فيوله ورتب صفوفه ، وكان فى المدينة داعيان من دعاة كسرى فاغتنما الفرصة واهتبلاها[1] عند خروج الملك من المدينة فظهروا واتبعهما من كان أطاعهما ، فوثبوا بخليفة الملك على المدينة ، فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها .

وبينما الملك قائمٌ فى جنوده فى ظهر المدينة أتاه رئيس الزمازمة حافياً حاسراً يلطم وجهه وينتف شعره ، فأمر الملك بحمله معه على فيله ، واستخبره فأخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته ، فانحاز الملك بخاصته ومن كان على بصيرة فى طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن ، وانتهى خبره إلى المرزبان فوجه خيلا لأتباعه فأدركه فوقف بإزائهم من كفى أمرهم وسار حتى دخل حصنه.

وأما المرزبان فإنه قصد المدينة ودخلها وضبطها وأحكم أمرها ، ثم سار فى جنوده إلى ذلك الحصن ، فرأى منظرا عجيبا رائعا ومعقلا ممنوعا مانعا ، لم يمكنه النزول بالقرب منه ، فنكص إلى حيث أمن ونزل فى جيوشه متحفظا ، وكتب إلى الملك الهندى كتابا يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال ، ويعرض عليه خصالا منها أن يرده إلى مملكته مكرما موفورا على أن يدين بطاعة كسرى ، فلما انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندى حجبه ولم يأخذ كتابه وأمره بالعود

---

(١) أى انتهزا الفرصة .

إلى مرسله ، فيئس المرزبان منه .

وكان يقال : صرفك النظر إلى عدوك إضاعة ، وإصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة .

وكان يقال : إذا أمكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق فى بحره والدخول فى وهن سحره .

وكان يقال : عجباً لمن يصغى إلى عدوه سمعاً وهو لا يرجو عنده نفعاً .

وكان يقال : إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيده أعجز .

ثم إن المرزبان عاد إلى المدينة وكتب إلى كسرى بالفتح وبما تهيأ له وعليه من الأمور ، فكتب إليه كسرى يأمره أن يقيم بتلك المملكة ويترك التعرض لذلك الأركن فى حصنه ، إلا أن يبدو منه فساد ، وأن يذكى العيون عليه ويقيم المسالح[1] فى جهات حصنه ، ففعل المرزبان ما أمره به كسرى ولبث بذلك مدة وجعل أعوان الفرس يعبثون فى تلك المملكة ويعاملون أهلها بالفظاظة والقسوة التى طبع الهند على ضدها ، فدبت الشحناء[2] فى النفوس ، ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة لما رأوا أن خراج أراضهم يحمل إلى غيرها وينفق فى غير أهلها، وعرفوا فضل ما كانوا فيه ، ومشقة ما صاروا إليه ، فبسطوا ألسنتهم وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول فيستوحشوا منه ، فكف عنهم فكان ذلك داعية إلى زيادتهم فى بسط الألسنة .

وكان يقال : أيدى الرعية تبع لألسنتها ، فإذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول .

وكان يقال : ترك نكير الصغائر[3] مدعاة إلى الكبائر ، فأول نشوز المرأة[4] كلمة سُومِحَتْ بها ، وأول حرض الدابة[5] حيرة سوعدت عليها .

---

(١) المسالح ، مفردها مسلحة : وهو موضع السلاح ومركز الجنود .

(٢) العداوة والبغضاء .

(٣) أى الأفعال الصغيرة التافهة .

(٤) عصيانها لزوجها .

(٥) الحرض : مهزولة يقال : (ناقة حرض) ، أى ضاوية مهزولة .

قيل : وأما الأركن الهندى فإنه لما استقر فى حصنه شاور وزراءه ، فأشاروا عليه بالصبر وكف الأذى ، وبسط العدل والإحسان ، وتأمين السبل وإجارة المستجير ، وتأليف المستوحشين ، والأخذ بالفضل والعفو . فاتخذ هذه الخلال شرعا يدين به ؛ فأزادت سمعته حسنا والقلوب إليه ميلا والألسنة له شكرا.

واتفق أن عاملاً للمرزبان على ثغر من تلك الثغور أساء السيرة ، فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمالته ونصح له فكره العامل ذلك ، وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلا من أهل عمالته يعارض أمره ويؤلب العامة عليه ، فكتب إليه المرزبان يأمره بحمله إليه مقيدا ، فأخذ الرجل فقيده وبعث به إلى المرزبان مع رجال من الجند ، فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر وفتاكهم ، فقتلوا أولئك الموكلين بذلك، وأطلقوه ، فأتى الرجل إلى العامل فأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عجز عن دفعهم ، فأمر به العامل فضربت عنقه وكان ذا منزلة عند أهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله ، وضبطوا ثغرهم ، وانضوى[1] إليهم من كان على مثل رأيهم ، ومن كان فى غير حصن ، وكاتبوا من يليهم فأجابوهم إلى مثل ما صنعوا وطردوا عمالهم ، فانتقضت الطاعة لكسرى فى مواضع كثيرة من تلك المملكة فى أسرع مدة .

ولما انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد ، وكتب إلى كسرى يستمده ، وكان أهل حضرته عندما خرج عنهم رئيس الزمازمة ، وتوجه مع ملكهم إلى حصنه قدما مكانه خليفة ، وكان مرضيا عندهم ، فلما رأى ما فيه المرزبان من الذعر والتوقى[2] وقصده من خافه بالمحنة والعفو له ، دخل على المرزبان فقال له : إنى أريد أن أسألك عن أمر ظننت علمه عندك .

فقال له المرزبان : قل . فقال : بلغنى أن مما أوصى أزدشير بن بابك[3]

---

(١) انضم وانحاز .

(٢) التحرُّز .

(٣) أزدشير بن بابك : مؤسس سلالة الساسانيين فى فارس الذين حكموها ، وهو أول ملوكها، فرض الزرادشية ديناً لدولته ، وله العديد من المعارك الحربية التى انتصر فيها . البداية والنهاية (٢/١٧١) .

ملك بابل أنه قال : قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية ، وأنه قال فى وصية : ينبغى لمن تغلب على ملك وغصبه[1] ربه أن يحفظ الصورة والشريطة التى تسلم عليها تلك المملكة ؛ فإنها محفوظة عليه وثابتة فى عقد تسلم تلك المملكة له ، فإنها ستخرج من يديه بمثل ما صارت إليه . وقيل : إن هذه الوصية كانت مكتوبة فى مجلسه بإزاء سريره وموضع قضائه.

ففهم المرزبان ما أراد ، إلا أنه أحب الوقوف على آخر ما عنده ، فقال له : الأمر على ما بلغك أيها الشيخ .

فقال رئيس الزمازمة : إذا كان الأمر على ما بلغنى فما لك لم تستعمل الحكمة التى علمت ، وعنفت فى سياسة الرعية عنفا أخرجها ، أو لعله أن يخرجها، ولم تحذر خروج هذه المملكة من يديك بمثل ما صارت إليك ؟.

فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وتهدده ، وكان شيخا ضعيف البدن كبير السن ، فسقط إلى الأرض مغشيا عليه وحمل إلى منزله فمات بعد أيام ، فعظمت المصيبة لموته وساءت القالة[2] ، وسمحت الأنفس من الشقاق بما كانت منقبضة عنه ، وفشا ذلك فى الرعية فشوا تاما ، فاستحضر المرزبان وجوه من بحضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبهم فى العافية ، فأرضوه بألسنتهم وتسللوا عنه وغلظ أمر أهل الأطراف المنتقضة ، وشغل عنهم المرزبان بتحضير البيضة[3] ، فبعثوا رسلا إلى الأركن الذى كان ملكهم يسألونه الصفح عنهم ، وأن يبعث إليهم رجلا يتحيزون إليه . فأعطاهم أماناً عاماً واستعمل عليهم عاملاً ، فألقوا إليه المقاليد واستبصروا فى طاعته ونصحوا فى الذب عنه .

واضطر المرزبان إلى أن يبعث إليهم جيشا ، فبعث فعادوا منهزمين مفلولين[4]، ولم يجد بدا من الخروج إليهم بنفسه ، فحصن دار الملك واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها ، وخرج منها متوجها إلى عدوه .

فلما فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه ، فاستوعبوهم قتلا وتشريدا

---

(١) أى نصره .

(٢) أى ساءت الأقاويل بين الناس .

(٣) البيضة : الخوذة من الحديد وهى من آلات الحرب لوقاية الرأس ؛ أى أنه استعد للقتال .

(٤) مشردين .

وأحرزوا مدينتهم ، وبلغ ذلك المرزبان ، فاستمر لوجهه خارجا من تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدا مفلولا ، وعاد الأركن إلى دار ملكه يجرى على سنن العدل ، والأخذ بالحزم ، وقمع شهواته واستعمل الحكمة التى أفادته التجارب إياها .

روضة رائقة ورياضة فائقة

بلغنى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان[1] رضي الله عنه قال لجلسائه وهو محصور فى الفتنة : وددت لو أن رجلاً صادقاً أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء ؛ يعنى الذين حصروه .

فقام شاب من الأنصار فقال : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، إنك تطأطأت لهم فركبوك ، وتخادعت لهم فسلبوك ، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك

قال : صدقت ، اجلس ، ثم قال : أتعلم أو هل لك علم بما يثير الفتن ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، سألت عن هذا شيخا من تنوح[2] كان باقعة ، قد نقب فى البلاد وعلم علماً جماً ، فقال لى : إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما: أثرة تضغن الحامة والثانى : حلم يجرىء العامة .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهل سألته عما يخمدها ؟ قال : نعم وقال لى : إن الذى يخمد الفتن فى ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استحكمت

---

(١) عثمان بن عفان : ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، أبو عمر ، وأمه أروى بنت كريز ، ولد بعد الفيل بست سنين على الصحيح. وزوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته رقية من عثمان ، وماتت عنده فى أيام بدر ، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم ؛ فلذلك كان يلقب ذا النورين . وجاء من أوجه متواترة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة ، وعده من أهل الجنة ، وشهد له بالشهادة ، وفضائله ومناقبه رضي الله عنه تطول . مات سنة (٢٤هـ) ودفن بالبقيع . الإصابة (٥٤٦٤) أسد الغابة (٣٥٨٩) .

(٢) تنوخ : قال ابن الجوزى : وتنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا بالبحرين وتحافوا على التناصر والتآزر ؛ فسموا تنوخاً . وقيل : قبيلة عربية مسيحية من الحيرة ، اعتنق أبناؤها الإسلام فى عهد الخليفة المهدى وسكنوا حلب . البداية والنهاية (٧٢/١٢) .

الفتنة فليس لها إلا الأزم ؛ يعنى الصبر .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهو ذلك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

تفسير ألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر

قوله باقعة : أى داهية مجرب ، ويقال : فلان باقعة بقاع إذا طوف بقاع الأرض واستفاد التجارب .

وقوله الأثرة : يعنى اختصاص بعض المستحقين للشيء به دون بعض وقوله الحامة : يعنى الخاصة .

وقوله تضغن : أى تحقد ، والضغن الحقد .

وقوله الأزم : هو الصبر والحبس ، وحقيقته الإمساك على الشيء بالأسنان

قال محمد عفا الله عنه : هذا الحديث ينحو إلى ما ذكره الفرس أن يزدجرد ابن بهرام[1] سأل حكيما من الفلاسفة : ما صلاح الملك ؟ قال : بالرعية ، وأخذ الحق منها بغير تعسف ، والتودد إليها بالعدل وأمن السبل ، وإنصاف المظلوم .

قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه إذا صلحوا صلح .

قال يزدجرد : أيها الفيلسوف إن الناس قد أكثروا فى الفتن ، فصف لى ما يثيرها وما يسكنها إذا ثارت .

فقال : يظهرها جرأة عامة ، ويولدها استخفاف خاصة ويؤكدها انبساط الألسن بضمائر القلوب ، وإشفاق موسر ، وأمل معسر ، وعطلة ملتذ ، ويقظة محروم .

فقال يزدجرد : وما الذى يسكنها أيها الفاضل ؟ قال : يسكنها أيها الملك أخذ العدة لما يخاف وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، والادراع[2] بالصبر والرضا عن القضاء .

---

(١) يزدجرد بن بهرام : من آخر ملوك الفرس الساسانيين ، هزمه المسلمون فى موقعة القادسية ونهاوند . وبوفاته انتهى حكم الأسرة الساسانية . البداية والنهاية (٣١/٧) .

(٢) أى الالتزام والتمسك .